جمال عبدالناصر والنزعة التاريخية

بقلم سامي خشبه

نزمع في هذه السطور ان نوضح جانبا واحدا من جوانب البناء الفكري لاسلوب جمال عبدالناصر في قيادة ثورة التحرر الوطني والتحول الاجتماعي في مصر ، وتأثيره القوي على حركة التحرر الوطني العربية والافرو آسيوية خلال الفترة التي امتدت منذ ١٩٥٢ حتى وفاته في سبتمبر ١٩٧٠ ، هذا الجانب الذي يمكننا ان نسميه نزعة عبدالناصر « التاريخية » في رؤيته للحركة السياسيةالتي خاض غمارها ووقف على رأسها هذه الفترة الحاسمة من تاريخ امته .

ونحن نعني بالنزعة التاريخية مبدأ التعرف على الظواهر الاجتماعية في اطار ـ ومن خلال ـ عملية نشوئها وتطورها وفي ارتباطها بالظروف التاريخية المحددة التي تحكمها. فالنزعة التاريخية ـ كما يقول القاموس الفلسفي ـ تدل على النظرالى الظواهرالاجتماعية باعتبارها منتجات لتطور تاريخي محدد ، وهي نظرة تضع في اعتبارها كيف تنشأ تلك الظواهر ، وكيف تطورت، وكيف وصلت الى حالتها ووضعها الراهنين (١) .

ان وقوف القائد الثوري على رأس حركة التحرر الوطني لامته ، هذه الحركة التي تعني بالضرورة التعبير عن التغير الشامل الذي تم في المجتمع من قبل ، والقدرة على استشراف ضرورات التغير الاجتماعي الاكثر شمولا والذي لا بد ان يبدأ بعد تحقيق التحرر الوطني الكامل اقول ان وقوف مثل هذا القائد على رأس مثل تلك الحركة لا يمكن ان يأتي اعتباطا ، ولا بمجرد ضربة من ضربات الحظ الموفق او بسبب نجاح خطة تآمرية احكم اعدادها . ان الالتقاء العميق الذي تم في مصر وفي الوطن العربي كله بين الضرورات الحتمية التي فرضتها الحركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية منذ بداية الحرب العالمية الثانية وبين فهم عبدالناصر ـ وقدرته على تطوير فهمه ـ لدوافع هذه الحركة ومطالبها الاساسية ، وضروراتها المحتمة ، هذا الالتقاء هو الذي يستطيع وحده ان يفسر قدرة «حركة الضباط الاحرار » في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على التحول الى بداية للمرحلة الاخيرة من مراحل الثورة الوطنية في مصر ، وفتح الطريق امام التحول الاجتماعي الشامل في مصر ايضا ، وكذلك فتح الطريق امام توحد اجنحة الثورة الوطنية في مختلف الاقطار العربية الامر الذي هيأ الظروف ـ رغم كل شيء ـ لانتصار هذه الثورة في اكثر من قطر عربي بمستويات مختلفة منذ عام ١٩٥٢ حتى الان. وهذا الالتقاء ايضا هو الذي يفسر السبب الذي جعل عبد الناصر وحده من بين كل قادة الثورات الوطنية في العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، يستطيع ان يجعل الحركةالثورية الوطنية فيحدودها المحلية (اي في مصر) نواة توحيد قوية للحركة الوطنية الثورية على المستوى القومي كله ، اي في كافة ارجاء الوطن العربي التي كانت ما تزال ترزح تحت نير الاستعمار . ويمكننا هنا ان نقارن بين ما حدث في الهند مثلا (ونقصد هنا بالهند معناها الجغرافي القديم الذي يشمل الهند والباكستان الحاليتين) حينما انحرفت الحركة الوطنية واضطرت الى التسليم بتجزئةالوطن الواحد تحت وطأةالخلافات الدينية بدلا من ان تكون الحركة الوطنية دافعا الى استيعاب هذه الخلافات وتخطيها يمكننا ان نقارن ذلك بموقف الحركة الوطنية العربية التي استقطبها عبدالناصر من وضع التجزئة الفعلي حيث اصبح « توحيد » الوطن مرادفا لتحريره من القهر الاستعماري ومن التخلف الاجتماعي في آن معا ، وحيث اصبحت الوحدة تعني انتصار الثورة

(1) A- Dic . of Philosophy - moscou - 1967 - P 193

التحرر الوطني ، وبداية التحول الاجتماعي في وقت واحد، بتصفية الوجود الاستعماري والطبقات المستفيدة من التجزئة والتي تكرس التجزئة ايضا .

ولم يكن عبدالناصر هو اول من رفع شعار الوحدة ولا اول من ربط بين الوحدة والحرية والاشتراكية ، ولكن كان اول من استطاع ان يضع برنامجا عمليا وينفذ سياسة واقعية تحقق الارتباط بين الوحدة العربية وبين تحرير الوطن العربي من الاستعمار وبداية تحوله الاجتماعي وفقا لمراحل تطور اقطاره المختلفة .. « ان العبقري ـ في مجال الافكار الاجتماعية ـ يسبق معاصريه ، بمعنى انه يلمح مبكرا عنهم معنى العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تظهر الى الوجود ، وبالتالي يستحيل في هذه الحالة حتى الحديث عن استقلال العبقري عن بيئته ، وفي مجال العلم الطبيعي يكتشف العبقري قوانين لا تستند بالطبع على العلاقات الاجتماعية ، لكن دور البيئة الاجتماعية في اي اكتشاف عظيم يظهر قبل كل شيء في تراكم ذلك الرصيد من المعرفة الذي لا يستطيع اي عبقري بمفرده ان يصنع شيئا بدونه ، ويظهر ثانيا في تحويل انتباه العبقري الى هذا الاتجاه او ذاك .. (١) .

ان نزعة القائد الثوري التاريخية هي مايصنع ارضية التقائه بالتطور الواقعي لامته ، كما ان « ثوريته » الواقعية ذاتها هي ما يميزه عمن سبقوه حتى الى الانكار التي يصبح هو علما عليها . القائد الثوري في عصرنا ـ عصر انتصار حركة التحرر الوطني والاشتراكية وانهيار الاستعمار العالمي ـ لا بد ان يرى في التاريخ البوتقة التي تمت في داخلها التفاعلات التي ادت الى صنع الحاضر ، ووضعت فيها بذور المستقبل . انه يرى « اللحظة التاريخية » التي يعيشها ويقف على رأسها باعتبارها نتيجة العوامل التي حدثت في الماضي والتي صنعها الناس في اثناء خوضهم غمار الحياة وفقا للقوانين التي تحكم حركتهم في المجتمع . انه لا يكتفي بوجهة نظر المؤرخ ايا كانت لانه لا ينوي ان يدرس الماضي وحده ، ولا يمكن ان يتبنى موقف « الزعيم » لانه ما من ارادة فردية تستطيع ان تصوغ الحاضر او المستقبل على هواها طالما ادرك ان الجموع هي صانعة التاريخ وفقا لقوانين محددة ومتغيرة . ولكنه يحاول دائما ان يكتشف في التاريخ العناصر التي بلغت عناصر النضج في الحاضر الذي يعيشه وان يكتشف القانون الذي حكم مسيرة تلك العناصر فحكم بالانقراض على بعضها بينما سمح للبعض الاخر بالاستمرار . وهو بهذين الاكتشافين يفتح الطريق امام الوعي الانساني لكي يستوعب حركة المجتمع الذي يتشكل هذا الوعي في داخله،

ومن اجل ان يتم التحول الجوهري او تبادل المواقع بين الوعي الانساني وبين حركة المجتمع ، وهو التحول الذي يبدأ به التاريخ الانسانى للمجتمع حيث يصبح وعي الانسان هو صانع الحركة الاجتماعية وقانونها وليس العكس، اي حيث تصبح الحرية متحققة وليست مجرد امكان محتمل، ولا يصبح التاريخ او الحركة الاجتماعية مفروضة على الارادة الانسانية لا تستطيع الا انتظار ما تحتمه عليها من نتائج والا الاستسلام لمثل تلك النتائج الحتمية .

ومع ذلك فالقائد الثوري ـ قائد حركة التحرر الوطني والتحول الاجتماعي في عصرنا ـ يعرف ايضا ان العناصر الاجتماعية التي يتحقق على ايديها هذا التحول ، انما تنمو ايضا في اطار الحركة الاجتماعية التاريخية ، وانها لا تخرج عن هذا الاطار مبرأة من كل آثاره ، وانها لا تستمر على صورتها التي بدأت بها مساهمتها الفعالة في حركة التحرر او في عملية التحول الاجتماعي . ويعرف ان المجتمع يحتاج الى مرحلة طويلة من النضال الدؤوب ضد مخلفات الماضي من اجل الوصول الى الوضع السيكولوجي والاخلاقي والفكري المنسق بحق مع وضعه السياسي والاجتماعي التاريخي الجديد .

ويعتقد الكثيرون ان نزعة عبدالناصر التاريخية لم تظهر بقوة الا منذ عام ١٩٦١ ، او بالتحديد مع صدور قرارات التأميم الكبيرة المشهورة التي حسمت قضية طريق النمو الذي تنوي الجمهورية العربية ان تسير فيه تحت القيادة الناصرية . وهم يبررون اعتقادهم هذا بان تلك القرارات ، وشروح عبدالناصر لها ، وخاصة ما جاء بعدها في الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ ، انما كانت التعبير النهائي عن « اقتناع » عبدالناصر بفكرة الصراع الطبقي وضرورة تصفية الرأسمالية المحلية باعتبارها اثرا من آثار المجتمع القديم ، وباعتبار تصفيتها الخطوة الحاسمة نحو بداية بناء المجتمع الجديد .

ولكن هذا الاعتقاد خاطىء لسببين :

اولهما ، ان عبدالناصر ، وان لم يصرح بوضوح وباقتناعه بفكرة ان صراع الطبقات هو جوهر التاريخ الاجتماعي ، فان مواقفه المباشرة والعملية من قضايا التطور الاقتصادي والاجتماعي لمصر ، تؤكد انه كان يدرك منذ البداية ، ويؤمن بان تاريخ « مصر » على الاقل انما يتلخص في تاريخ الصراع بين الفلاحين المعدمين وبين ملاك الارض الذين سماهم « الاقطاع » وان تاريخ مصر الحديث يمتزج فيه صراع العمال ضد الرأسماليين بصراع الفلاحين ضد ملاك الارض . وهناك العشرات من خطب عبدالناصر واحاديثه وبياناته في بداية الثورة (اعوام ٥٢، ٥٣، ٥٤) تحدث فيها باسهاب عن المشكلة الزراعية والقضية الوطنية ،وعن ارتباط تحرير الفلاح من سيطرة

---

(١) بليخانوف ـ تطور النظرة الواحدية الى التاريخ ـ ص ١٧٦ ـ ترجمة : محمد مستجير مصطفى ـ القاهرة ١٩٦٩ .

مالك الارض الكبير بتحرير الوطن عن السيطرة الاستعمارية

ولكن فهم عبدالناصر لقضية الصراع الطبقي لم يقف ـ حتى في البداية ـ عند حدود هذا الفهم الاقتصادي الذي لم يجد القائد الثوري الشاب صياغة له سوى صياغاته الانشائية والخطابية المؤثرة ، ولكنها المعبرة بحق عن واقع ملكية الارض وعلاقة الفلاح بها وبمن يملكها . لقد تخطى عبدالناصر هذا الفهم الاقتصادي ، وتخطاه مبكرا الى رحاب فهم سياسي اكثر شمولا وعمقا .

في ٢ اغسطس عام ١٩٥٥ ، تحدث عبدالناصر الى مندوب جريدة لوموند الباريسية ، ويجيب على سؤال عن « الحريات الدستورية » التي ستتمتع بها مصر ، فيقول :

« ان الحرية في نظري هي حرية الرجل العامل ، حرية العامل في ان يحيا حياة كريمة ، وان تتاح له فسحة من الوقت للراحة ،وحرية الفلاح في الحصول على الارض وجني ثمار ما بذر وان يحتفظ بثمار جهوده فلا يعطيها لاقطاعي يضغط عليه ، هذه هي حرية الفلاح كما افهمها ..

ثم ما هي الحرية ؟ هل هي ان نرى الراسماليين يعيشون في عزلة عن بقية الشعب ، ينعمون بحياة الترف التي تعد سبة في جبين البلاد ؟ هل هي حرية الاقطاع الذي يحرم الفلاح من الارض التي تقيم اوده ويحرمه حقوقه الاولية ؟ ..، اننا نجد الاستغلاليين من رجال العهد البائد يناصبوننا العداء ،ولكن هذا لن يغير من الوضع شيئا فان الحرية التي نعمل لتحقيقها هي حرية الاكثرية لا حرية الاقلية ، ان الكادحين والفلاحين والعمال والتجار والطبقة المتوسطة يقفون الى جانبنا فهم يعلمون اننا نكافح في سبيل تحسين حالهم ».(١) هذه دون شك صياغة انشائية لتصور سياسي علمي صحيح عن حقيقة الصراع الطبقي في مصر ، وهو الصراع الذي كانت ثورة ١٩٥٢ نتيجته المباشرة والتعبير الصريح عن انتصار احد اقطابه الرئيسية. ولكنها ايضا صياغة واعية بفخ العبارات الليبرالية من نوع « الحريات الدستورية » التي تتمتع هي الاخرى بصياغات انشائية ولكنها توهم بانها تعبر عن نوع مطلق او مجرد من الحرية ، لا يرتبط بمصالح طبقات محددة . وهذه الصياغة الانشائية ايضا التي تستطيع ان تحدد القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في التغيير الاجتماعي، بالكادحين والفلاحين والعمال والتجار والطبقة المتوسطة ، هي الصياغة التي عبرت عن التصور الاولي عند عبدالناصر عن حقيقة الصراع الطبقي في مصر ، ولكن هذا التصور نفسه هو الذي تطور فيما بعد لكي يجد صياغته السياسية الصحيحة في الميثاق والتي اطلقت على هذه القوى اسم « قوى الشعب العامل » حيث اكد ضرورة تحالفها في مرحلة الصراع الوطني والمراحل الاولى للتحول الاجتماعي.

وفي كلمات عبدالناصر ايضا ما يدل دلالة واضحة على ادراكه العلمي السليم لطبيعة الارتباط بين الصراع الطبقي وجوانبه السياسية والاقتصادية وبين الصراع الوطني من اجل التخلص من السيطرة الاستعمارية ، وهي دلالة لا تقل وضوحا عن دلالة مواقفه من الاحزاب الرجعية القديمة وجمعه بينها وبين قوى الاستعمار نفسه وتعامله مع الجانبين على اساس واحد .!

« وقد كنا يا اخواني نحارب في جبهتين : جبهة الاستعمار ، وجبهة البناء والتعمير ، وكانت هاتان الجبهتان متصلتين اتصالا قويا . فاننا قد اردنا ان نقضي على الاستعمار وعلى اعوان الاستعمار وانما نقضي عليهما لكي يكون الوطن ملكا لنا جميعا .. ملكا لنا ولابنائنا ..(٢) وقد قال عبدالناصر هذه الكلمات في يوليو ١٩٥٥ .

وبنفس الاسلوب ايضا ، يعبر عبدالناصر عن ادراكه لحقيقة ارتباط السلطة بالسيطرة الطبقية ، في الفترة المبكرة ذاتها فيقول في اكتوبر ١٩٥٤ :« كل واحد منكم يشعر ويحس بالماضي ،كل منكم يعرف ان الحكم كان اداة من ادوات الانتقام وان كرسي النيابة كان وسيلة من وسائل الانتقام ،وكل واحد كان يتبع هذه الوسيلة يمهد الطريق للتفريط في حريته وكرامته وعزته » (٣) انه يتحدث هنا عن طبيعة الديموقراطية « الليبرالية » ، الشكلية ،التي كانت الصورة الخارجية لنظام الحكم في مصر قبل ١٩٥٢، ويحدد ببساطة تكاد تكون غير سياسية العلاقة بين الاستيلاء على الحكم وبين ممارسة القهر الذي يسميه « الانتقام » وبين الوصول الى مقعد البرلمان وبين نفس الموقف الطبقي في جوهره .

ويعود عبدالناصر الى نفس الموضوع ، والى نفس الفكرة بعد اقل من عام ،لكي نجدها تزداد وضوحا وتحصل على تصور اكثر نضجا وان ظلت الصياغة الانشائية هي وسيلة التعبير الوحيدة ، والتي تفرضها طبيعة اسلوب حديث الرجل لابناء شعبه ومحاولة توصيل الفكرة بصرف النظر عن مصطلحاتها المعهودة .يقول في يوليو ١٩٥٥ :

« احب ان اقول لكم ان شعب مصر بعد ثلاثة اعوام طويلة من الثورة بدأ ينظر الى الحكومة على انها تمثل اهدافه وتمثل آماله بعد ان كان ينظر الى الحكومة في الماضي على انها تمثل آمال الاستعمار ، بل تمثل الاستبداد وتمثل الاستغلال » (٤)

---

(١) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات جمال عبدالناصر ـ القسم الاول ـ ص ٣ـ٤ـ٤ـ٤ـ ـ طبع الهيئة العامة للاستعلامات ـ القاهرة

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٨٨ .

(٣) المصدر السابق ـ ص ٢٣١ .

(٤) المصدر السابق ـ ص ٣٩٣ .

ولكن الملاحظ هنا ـ ايضا ـ في كلماته التي اقتطفها من حديثه عن حرية العامل وحقه في الحصول على « فسحة من الوقت للراحة » وعن ان كل « واحد يتبع هذه الوسيلة يمهد الطريق للتفريط في حريته وكرامته وعزته » ان عبد الناصر كان يستطيع ان يتجاوز الفهم الاقتصادي والسياسي للحرية الى فهم يقرب من الفهم الفلسفى العلمي لها . ان ارتباط الحرية بـ الراحة » وارتباط قهر الاخرين بفقدان القاهر نفسه لحريته وكرامته ، يذكرنا ولا شك بمفاهيم فلسفية لم تبرز الى ساحة التصور الايديولوجى العلمي الا حديثا جدا ، وهذا لا يعني بالطبع ان عبدالناصر كان « فيلسوفا علميا » ولكنه يعني بالتأكيد ان حساسيته الثورية كانت قادرة على الوصول الى الكثير من المدركات العلمية الانسانية ، مجزأة دون ان تكون لبنات من نظرية متكاملة في الصراع الطبقي او في الحرية ، او في المفهومات السياسية عموما ودلالاتها السيكولوجية والاخلاقية ، ولكنها ذات تأثير قوى على ايديولوجية مجتمعه السائدة وعقليته وطريقة تفكيره .

اما السبب الثاني الذي يدفعنا الى الاعتقاد بان نزعة عبدالناصر التاريخية كانت سمة اساسية من سمات تفكيره منذ البداية واساسا قويا لقراراته التي اتخذها قبل عام ١٩٦١ ، فيظهر بوضوح من ميله الشديد الى العودة الى التاريخ الحديث لمصر وللوطن العربي ، في معرض كلامه عن التحول الذي ينبغي لمصر ان تعيشه سياسيا وفكريا . ولهذه العودة الدائمة الى التاريخ عند عبدالناصر دلالاتها المتنوعة .

لقد وعى عبدالناصر دوره ـ لا كمجرد رجل دولة او سياسي حاكم ، بل ولا كمجرد ثوري استطاع ان يصل الى الحكم ـ ولكنه كان يعرف ان دوره الاساسي ربما كان هو دور « الداعية الثوري » الذي لا يغيب عن ادراكه ابدا ان عليه ان يغير اسلوب حياة شعبه بايقاظ القوى صاحبة المصلحة في التقدم وتنظيمها وتسليمها زمام السيطرة الاجتماعية ، بقدر ما كان عليه ان يغير عقلية هذا الشعب واسلوبه في التفكير . وربما كانت وسيلته الاولى ـ ذات الطابع الرومانسي حقا ولكنها ذات التأثير العقلي والعاطفي القوي ـ هي العودة باستمرار الى نماذج محددة من التاريخ يستوحيها المعاني الجديدة ، ويعيد تفسيرها على ضوء فهمه « السياسي » للتاريخ ، ويزرع من خلالها افكاره وافكار عصره . وقد تكون احداث المقاومة العربية لغزوات الصليبيين والمغول من اشهر هذه النماذج التي وقف عبد الناصر عندها طويلا ، وهي ايضا من اشهر النماذج التاريخية ذات الطابع الرومانسي والتي كان عبدالناصر يعرف بوضوح تأثيرها العاطفي على وجدان امة لا بد ان تستعيد احساسها بـ « العزة القومية والكرامة » على حد تعبيره المشهور الذي كان يعني به دائما استعادة الاحساس بالانتماء القوي الذي يغذي اكثر من غيره الاحساس الوطني لدى شعب يحارب قوى اكبر منه ، دفاعا عن كل ما يملكه .

ولكن النموذج التاريخي الاكثر واقعية والانضج تأثيرا من الناحية السياسية هو النموذج المستمد من الثورة المصرية في ١٩١٩ ونتائجها الكثيرة المتمثلة في اعلان استقلال مصر مع التحفظات الاربعة المشهورة ، وتكريس التكوينات الحزبية التي اكدت نضج الانقسام الطبقي والصراع في المجتمع المصري ، ثم دستور عام ١٩٢٣ ، هذه النتائج التي اكدت ان ثورة ١٩١٩ انما كانت ثورة شعبية اذا نظرنا الى قوائها الرئيسية ووقود نيرانها ، وثورة بورجوازية تحالفت مع كبار ملاك الارض وجنحت الى مهادنة الاستعمار اذا نظرنا الى نتائجها السياسية العملية .

في يوليو عام ١٩٥٥ ، يقول عبدالناصر :

« ولهذا يا اخواني حينما قضينا على اعوان الاستعمار ترنح الاستعمار واستطعنا ان نحصل على الجلاء .. اننا لم نسكت ابدا عن الكفاح منذ ان وطئت اقدام الانجليز ارض الوطن .. فهذا الشعب كافح دائما منذ ان وطئت اقدام الاستعمار ارض الوطن .. حارب الشعب في الاسكندرية وفي كفر الدوار وفي الشرقية ، ولم يقبل ابدا ان يسلم .. وفي سنة ١٩١٩ قام هذا الشعب يحارب الانجليز بالعصي ... قام الشعب سنة ١٩١٩ وقام الشعب سنة ١٩٣٩ يطالب بالحرية ويطالب بالاستقلال ولكن اعوان الاستعمار كانوا دائما عونا للاستعمار ضد الشعب وضد امال الشعب .. وحينما قضينا على اعوان الاستعمار الذين كانوا يتسترون تحت اسم الحزبية ليحققوا لانفسهم المغانم الشخصية .. حينما قضينا عليهم ، وشعر هذا الشعب بانه اصبح قوة واحدة متحدة متماسكة استطاع نفر قليل ذهبوا الى القنال ان يجبروا جيش الاحتلال على التسليم وان يجبروه على ان يخرج جيشه من ارض الوطن .. لان جيش الاحتلال ، بل لان الاستعمار وجد انه لا سند له بعد ان تداعى اعوانه ..(١)

هنا لا يقدم عبدالناصر من تحليله لثورة ١٩١٩ سوى الجانب الذي يؤكد مشاركة الشعب فيها بالقوة الاساسية ، والذي يؤكد استيلاء « اعوان الاستعمار » من الطبقات الرجعية على كل مكاسبها ، ولكنه يقدم هذا الجانب في خطوطه السريعة لكي يوضح جانبا عصريا من الثورة الحالية ، يبشر به بين « شعبه » لكي يساعده على تغيير نظرته الى التاريخ وارتباطه بالقوى التي سيطرت عليه في السنوات بين ١٩٢٣ ، ١٩٥٢ السابقة مباشرة على الثورة الجديدة : فان الاستقلال الوطني الذي حاربتم من اجله قد ضاع لان الطبقات التي حاربتم تحت قيادتها قد هادنت الاستعمار على حسابكم ، ولم تكونوا تستطيعون الحصول على هذا الاستقلال الوطني الا اذا توليتم بانفسكم

(١) المصدر السابق ص ٤٠١ .

قيادة الكفاح الوطني ، واسقطتم تلك القيادة الرجعية المتهادنة . ليس هذا درسا في التاريخ ولكنه درس يهدف الى تغيير عقلية الشعب ! ان من يهادن الاستعمار لن يهادنه الا على حساب « الشعب » والقوى الثورية ، وهو يهادنه لان الاستقلال عن طريق الثورة الشعبية انما يهدده هو بقدر ما يهدد الاستعمار ، ولذلك فلا بد من القضاء عليه مع الاستعماربضربتين متتاليتين،ينال هو اولاهما ولا يستطيعان يسددهما سوى القوى الشعبيةالثوريةوحدها.

وفي ٢١ يناير سنة ١٩٥٦ يتحدث عبدالناصر عن الدستور الاول الذي اصدرته الثورة في١٦ يناير من نفس العام ، فيعود الى نفس موضوع ١٩١٩ ، والى دستور ١٩٢٣ الذي كان احدى نتائجها :

« نحن نعلم جميعا ان الثورة ، ثورة ٢٣ يوليو لم تكن فقط ثورة سياسية ولكنها كانت تجمع بين الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ـ وقد تضمن هذا الدستور المبادىء التي ترسي قواعد العدالة الاجتماعية والمبادىء التي ترسي القواعد السياسية النظيفة وتخلصنا جميعا من الظلم الاجتماعي وتخلصنا من الاستبداد السياسي .

اننا اليوم ونحن نبدأ مرحلة جديدة من تاريخنا يجب ان نأخذ من ماضينا عبرة . ففي عام ١٩١٩ قامت ثورة في مصر جمعت جميع ابنائها من اجل .. الاهداف الاجتماعية والتخلص من الاستعمار . واستطاع الشعب ان يجبرالملك والاستعمار علىان يطأطئوا الرؤوس وسارت مصر بعد ان اعتقدت انها حققت ما تصبو اليه واعلن دستور ١٩٢٣ . وكان دستور ٢٣ منحة منهم كما قالوا ولكن الشعب هو الذي كان بكفاحه وجهاده قداجبرهم على اعلان دستور ١٩٢٣ ، ولكن هل طبق هذا الدستور؟ ابدا لقد كان دستور ١٩٢٣ خدعة .. كان الشعب يمثل اهدافا واحدة لان الشعب الذي قام بالثورة كان يهدف الى عدالة اجتماعية نظيفة .. لقد انتكست ثورة ١٩١٩ ولم يكن الشعب هو السبب ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يطمعون في الاستغلال والتحكم في الشعب ، كان هؤلاء هم السبب الرئيسي والاول في انتكاس ثورة ١٩١٩، ونسينا الاهداف التي قمنا من اجلها في ثورة ١٩١٩ وانتهينا الى الاحقاد والحزبية وقاسى الشعب . انتم الذين قاسيتم . قاست الاغلبية العظمى،واصبحت تحكمها الاقلية التي تمادت في جمع المال والثروات وتم كل هذا تحت اسم الدستور والديموقراطية » .(١)

هنا يعود عبدالناصر ، من نظرته التاريخية الىتأكيد أحد المعاني الاساسية التي كان يرى ان تبشيره بها يعد مهمته الاولى ، ولكي ان يعي الشعب الثوري قدرته، في الماضي وفي الحاضر القائم . فالشعب بكفاحه وجهاده هو الذي اجبر الملك واعوان الاستعمار على اعلان دستور ١٩٢٣ ، ولكن القيادات المتهادنة مع الاستعمار والتي تخاف نتائج انطلاقة القوى الشعبية الثورية الواثقة من نفسها بعد نجاحها في كفاحها الثوري ،هي المسؤولة عن عدم « تطبيق » دستور ١٩٢٣ وهي المسؤولة عن ذلك لانها كانت تريد شيئا آخر ، كانت مشغولة « بجمع المال والثروات » على ان يتم كل هذا تحت اسم الدستور والديموقراطية. وعبدالناصر يقول هذا بعد ان يقول «علينا ان نأخذ من ماضينا عبرة ، فالتاريخ قد يكون مجالا للدراسة بهدف فهم الحاضر اذا ما اكتشفنا ملامحه وقوانين حركته ، ولكن التاريخ ايضا يكون « اكثر » عبرة اذا كانت آثار المباشرة ما تزال ممتدة الى الحاضر القائم، وما تزال بحاجة الى ان يتصدى لها الثوريون ويجتثوها .

وفي ١ يونية ١٩٥٦ ،يعودعبدالناصر الى النموذج التاريخي المستمد من ثورة ١٩١٩ ، لكي يؤكد معنى اخر في ارتباط الثورة الوطنية بالثورة الديموقراطية والتحول الاجتماعي .

..« في عام ١٩١٩ قامت ثورة في مصر وكانتهذه الثورة تهدف الى اقامة حياة ديموقراطية سليمة ، وكانت هذه الثورة تنادي بالاستقلال التام .. واسلمت البلد قيادها الى زعماء اعتبرتهم امناء علىهذه الاهداف ... وبعد ذلك ماذا حدث ؟ هل تحققت الديموقراطية ؟.. تطورتالامور وانتهت ثورة ١٩١٩ بنصر دستوريوحصلت البلد على دستور في عام ١٩٢٣ . هل طبق هذا الدستور حسب مواده وحسب ابوابه وبنوده ؟ هل طبقت الديموقراطية بحيث تكون الحرية حرية شاملة ؟.. انتكست ثورة ١٩١٩ واصبحت الحرية هي حرية التحكم وحرية السيطرة وحرية الاستبداد وحرية الاستغلال . وبدأت فئة قليلة من ابناء هذا الشعب تعتبر ان هذهفرصة لتكسب ... لتفتني وتجمع اكبر قدر من المال ونسيت هذاالشعب الذي قام وثاروقاتلوقاسى وجابه الاستعمار. وابتدأت هذه الفئة القليلة تتآمر .. تتآمر من اجلمصلحة خاصة .. وجدت هذه الفئة القليلة انها لن تستطيع ان تقاوم الشعب ولن تستطيع ان تقاوم الاستعمار في نفس الوقت وايقنت ان الشعب لن يسلم ولن يستسلم ، ولكنه سيحاول مرةاخرى ان يطالب بحقه في الحياة .. سيحاول ان يطالب بحريته .. سيحاول ان يطالب بعدالةاجتماعية. ... واتجهت هذه الفئة المستغلة الى الاستعمار لتتعاون معه وتتآمر معه على حقوق هذا الشعب وعلى حرية ومقومات هذا الشعب (٢) .

فالطبقات المستغلة والمتحكمة والمستبدة لن تستطيع ان

(١) المصدر السابق ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧

تقاوم الاستعمار والشعب في وقت واحد . انها قد تقدم « وعودا براقة وكلاما خلابا » كما يقول عبدالناصر في نفس الخطاب ، ولكنها لن تحقق من ذلك شيئا لانها مشغولة باستغلالها وثرواتها وترفها ، وستضرب القوى الشعبية الثورية وتتهادن مع الاستعمار ، ولكن « طال الامر » ولم يسكت الشعب ولكنه قاوم وهب وصبر ، ولكن هل استسلم الشعب . لم يستسلم ابدا . « كما قال عبدالناصر ايضا في نفس الخطاب .

★ ★ ★

فالنزعة التاريخية في المفهوم النظري – كما يقول القاموس الفلسفي – او كمنهج محدد في البحث النظري لا تعمل على تثبيت اي تغير تاريخي (حتى ولا التغيير الكيفي) وانما تثبت فقط تلك التغيرات التي تعكس تكون الخصائص النوعية والارتباطات بين الاشياء والظواهر ، والتي تقرر معناها وخصائصها النوعية .

ولكن النزعة التاريخية في التطبيق العملي ،في ممارسة العمل السياسي الثوري ، لا بد ان تكون سلاحا اساسيا في يد القائد الثوري من اجل اكتشاف القوى الاجتماعية المختلفة في المجتمع الذي يعيش فيه ويناضل على رأس قواه الثورية، ومن اجل تحديد الاعداء والاصدقاء الاعداء المؤقتين والاصدقاء المؤقتين والدائمين كذلك حتى يمكن توجيه العملية الاجتماعية توجيها واعيا نحو الهدف الثوري في المرحلة المعينة وطبقا لتصور واقعي وعلمي عن القوى المشتبكة في تلك العملية ،وهي سلاح ايضا من اجل اكتشاف المعاني الايديولوجية والسياسية الاساسية التي لا بد ان يتبناها القائد الثوري – باعتبارها المعاني المعبرة عن مصالح وعقلية القوى الاجتماعية المتقدمة – لكي يستخرجها من اطار التنظير المتعالى ، او التلقائية الفكرية ويدفعها الى رحابة وعي القوى الثورية كلها ، لتتحول هذه المعاني الى اجزاء اساسية من العقلية الثورية الجديدة ، القادرة وحدها على صيانة الثورة من التلقائية والتردد والفوضى . وان دراسة تفصيلية شاملة لمواقف عبدالناصر السياسية ، ولكلماته في الحركة الاجتماعية او القومية او في الثقافة والفكر ، لتكشف عن اصالة نزعته التاريخية ، رغم عدم قيامها منذ البداية على اساس نظري مسبق ظاهر .

كان عبدالناصر قادرا على اكتشاف معنى الواقع القائم ومعنى التاريخ جميعا من خلال مراقبته للاول مراقبة يقظة ومستجمعة ، ومن خلال دراسته الثاني دراسة مباشرة وموضوعية وغير متحيزة الا للحقيقة العلمية ولمصالح الجماهير الثورية . وربما كانت هذه هي النزعة التاريخية الاكثر اصالة ، وان كانت الاكثر تطلبا للجهد من اجل صياغتها واكتشافها ، والاكثر احتياجا الى هذه الصياغة وذلك الاكتشاف .

القاهرة **سامي خشبة**

كارل ماركس

تأليف

روجيه غارودي

ترجمة : جورج طرابيشي

« يستقطب ماركس وتراثه اليوم مشاعر الامل والغضب عند الناس اجمعين ، ويمثل فكره ، بحب او بسخط ، سؤالا ووعدا وكفاحا بالنسبة الى البشر جميعا والطبقات كافة والامم قاطبة .

ذلك ان هدف هذه الفلسفة هو تغيير العالم ، وليس فقط تغيير الفكرة التي نملكها عنه ... فقد ازاح ماركس النقاب عن الفلسفة بوصفها تعبيرا عن عمل البشر وصراعاتهم ، ونزع ايضا قناع الفلسفات التي كانت تزعم انها تحلق فوق هذا العمل وهذه الصراعات ، وكشف الممارسات والسياسات التي انيطت بتلك الفلسفات مهمة تبريرها او تمويهها .

لقد اصبح فكر ماركس الوعي الفاعل لعصر بأكمله . فهو يعلمنا كيف نستخلص قانون التطور التاريخي لعصرنا ، ويساعد كلا منا على ان يعي معنى حياته ومعنى المستقبل الذي يحمله في طوايا نفسه ، ومعنى مسؤوليته تجاه هذا المستقبل .

ان فكر ماركس يبدو اليوم ، بالنسبة الى انصاره وأعدائه على حدّ سواء خميرة الاختمارات الانسانية قاطبة في القارات الخمس . فهو يستدعي لدى بعضهم مشاعر الحقد واللعنة ،والاضطهاد والمحارق البشرية على نطاق لم يعرفه التاريخ قط ، ويثير لدى الجماهير الفقيرة التي وجدت فيه منفذا للنجاة ومعقدا للرجاء اندفاعة معجزة نحو البطولة والتضحية .

وما اخذه هذا الكتاب على عاتقه هو محاولة تفسير تلك الواقعة الهائلة » .

صدر حديثا الثمن : ٥٥٠ ق.ل.